بيت السلالم

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

بيت السلالم
اسم النص الأصلي: house of stairs
اسم المؤلف: ويليام سليترو
ترجمة: بسمة الخولي
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغوي: سارة صلاح
رقم الإيداع: 2022/25595
الترقيم الدولي: 978-977-6634-87-9
الطبعة الأولى: 2023

ويليام سليترو

بيت السلام

رواية

ترجمة

بسمة الخولي

دارك
للنشر والتوزيع

(1)

استمر الطنين حوله لفترة طويلة. بدا الأمر كما لو كانوا في مصعد، لكن الحركة كانت سَلِسة جدًّا لدرجة أن حواسه عجزت عن استطلاع ما إذا كان يتم حمله لأعلى أو لأسفل أو حتى إن كانوا يتحركون أفقيًا. ومن جديد، كما حدث عدة مرات خلال الساعة الماضية تحركت يداه بشكل لا إرادي للوصول إلى أعلى ودفع العُصابة بعيدًا عن عينيه، لكن مرة أخرى منعه الحبل الذي قيَّد معصميه.

لم يحاول بيتر فك القيد، ولا الصراع ضد فكرة كونه مقيدًا، لا هذه المرة ولا خلال كل المرات السابقة التي كَّرر فيها الحركة. فقط التزم الهدوء والصمت.

بعد فترة توقف الطنين. انتُزع الحبل، ودُفعَ إلى الأمام برفق، انحلال الرباط عن يديه والعصابة عن عينيه كان سريعًا وبحركة واثقة، حتى إنه لم تُتَح له اللحظة المناسبة ليلتفت فجأة فيتمكن من رؤية الفاعل. لا، انغلق الباب خلفه، وبدأ الطنين من جديد قبل أن يتلاشى مبتعدًا، ليصبح وحيدًا فجأة وسط الصمت.

في البداية عجزَ بيتر تمامًا عن الرؤية، أغمض عينيه بسرعة في مواجهة الوهج الأبيض أمامه. أعاد فتحهما لكنه شعر بالدوار وبدأت معدته بالاعتراض، لذا أغلق عينيه من جديد. كررها عدة مرات حتى بدأ الدوار بالتلاشي وبدأ عقله باستيعاب المشهد أمامه.

كل ما كان يراه هو السلالم. بدا أن السطح المستوي، المرتفع والضيق الذي كان يقف عليه هو المكان الوحيد المسطح هناك، أعلى وأسفل منه على مد البصر امتدت السلالم، بدت لا نهائية. أصغر على امتداد مجال رؤيته لكنها هناك، درجات سلم صاعدة وهابطة بزوايا غريبة، متشعبة، متداخلة، توازي بعضها البعض قليلًا فقط لتنحرف عن بعضها مرة أخرى وتعود لتتشعب في كل الاتجاهات، عابرة فوق وتحت بعضها البعض، متصلة على فترات نادرة بجسور رفيعة تمتد عبر ما بدا كالأخاديد العميقة في الأسفل، ظلام تام لكنه عرف داخله أنه كان يحوي المزيد من السلالم أسفل الطبقات التي يراها بالفعل.

كل تلك الدرجات قد امتدت بلا شيء يدعمهم ولا حتى درابزين.

يبدو أن المادة البيضاء اللامعة التي صُنعت منها قوية بما يكفي لتقوس بمفردها عبر مسافات كبيرة. لم تكن القاعة التي يراها في الهواء الطَّلق، فالوهج واسع الانتشار وغير المباشر جاء من الضوء الاصطناعي في مكانٍ ما، لكنه لم يستطع رؤية الجدران أو الأرضية أو السقف. فقط السلالم.

بدأ الرعب يتسلل لقلبه، المساحة الشاسعة من كل الجوانب والدرج الذي التفَّ حوله في أشكال معقدة لا معنى ولا نهاية لها كانت كافية ليبهت بصره ويهبط الدم من رأسه إلى قدميه. تراجع للوراء خطوتين محاوِلًا الحفاظ على استقرار قدميه على السطح المستوي الوحيد أسفل منه، لكنه سرعان ما توقَّف واستدار بهلع.

لحُسن حظه جاء رد فعله بالتوقف في اللحظة المناسبة ليتفادى السقوط عبر الفراغ الأبيض خلفه. لم يكن هناك أي شيء يدعمه من الخلف. الجدار الذي ظنَّ لوهلة أنه سيكون هناك ليستند إليه حلَّت

محلـه مسـاحة فارغـة أكـبر والمزيـد مـن السـلالم تمتـد كالثعابـين العملاقـة في اتجاهـات مختلفـة.

لكـن المصعـد!!، كان مـن المنطقـي أن يـرى الجـدار الـذي خـرج منـه المصعـد الـذي جلبـه إلى هنـا. المربـع الـذي كان داخلـه منـذ لحظـات يهتـز ويتحـرك لم يكـن ليتحـرك في الفضـاء دون شيءٍ يدعمـه. لكـن لم يكـن هنـاك شيء عـلى الإطـلاق. لا مصعـد ولا جـدار ولا حتـى سلاسـل متدليـة مـن السـقف ليصعـد الجهـاز فيهـا، فـراغ وسـلالم فقـط.

في هـذه اللحظـة بـدأ «بيـتر» يرتجـف، تهـاوت سـاقاه أسـفل منـه وجلـس ضامًـا إياهـما إلى صـدره، غرقـت رأسـه بـين ذراعيـه اللتـين لفهـما حـول جسـده محـاولًا الشـعور بالأمـان، أو عـلى الأقـل بوجـود شيء يدعمـه. توقـف عقلـه عـن التفكـير وبـدأت أنفاسـه تتسـارع.

لمـاذا وضعـوه هنـا؟ هـل مـن المفـترض أن هـذا نوعًـا مـن العقـاب، لكـن مـا الخطـأ الـذي ارتكبـه؟، ولمَ هـو هنـا أصـلًا؟

ببـطءٍ بـدأ يسـتعيد أحـداث الأسـبوع المـاضي في ذهنـه. النظـرات الطويلـة التـي لاحظهـا وكأنـه مريـض. الانتبـاه الأكـبر لكلامـه وردود فعلـه عـلى مواقـف يوميـة عاديـة، القليـل مـن الإيمـاءات اللطيفـة والتصرفـات الطيبـة التـي لم يعتدهـا، مثـل القطعـة الثانيـة مـن الفطـيرة التـي تناولهـا في الغـداء أمـس، تصرفـات صغـيرة غريبـة عنـه لم يـرَ أيَّ أهميـة لهـا في وقتهـا، ولكـن الآن، بعـد وضعهـم جميعًـا معًـا، بـدأ نمـط في الظهـور.

لكنـه لم يكـن نمـط ترقـب ومتابعـة حالـة مـن في طريقـه ليتلقـى عقابًـا مـا؛ كان الأمـر كـما لـو كانـوا يعلمـون أنـه عـلى وَشْـك الخضـوع لعمليـة خطـيرة ورغبـوا في المـؤازرة وتقديـم الدعـم قبلهـا مثـلًا.

لكـن مـا يحـدث الآن لم يكـن منطقيًـا عـلى الإطـلاق! لـو كان مصابًـا

بمرض ما لم يعلمه وهم عرفوه فهذه لم تكن مستشفى، هذا المكان المروع عقوبة على جرم لا يعرفه.

على الرغم من أن عينيه كانتا مغمضتين بإحكام، إلا أنه لم يستطع أن يتفادى الشعور بمكانه. المساحة الشاسعة المحيطة به مقارنة بجسده الضئيل والسطح الصغير الوحيد الذي يدعمه أسفل منه بلا أدنى دعم خلفه أو في أي نقطة في محيط بصره أجبر أنفاسه على التسارع، بدأ يشعر بوخز في جلده وبدأت رأسه بالدوران مرة أخرى.

- "لا!" صرخ داخل رأسه معنفًا.

«فكر في شيء آخر، أي شيء آخر. أنت في سريرك، تحت الأغطية».

لكن قبل أن يتمكن من اجتلاب الراحة من التخيل، قفزت فكرة أخرى شاحذة أنيابها لتلتهم الوهم الذي حاول صنعه ولو للحظة:

«إلى متى سأبقى هنا؟ ربما لبضع دقائق أو ساعات فقط؟؛ ربما هو اختبار لقوة تحمُّلي وسرعان ما سأخرج من هنا؟، لكن، هل هو اختبار حقًا؟، هل سأخرج فعلًا بعد قليل؟، أم سأكون هنا لعدة أيام؟ ربما حتى للأبد!!».

رغمًا عنه تأوَّه بيتر متألمًا. لم يستطع تحمُّل تلك الفكرة. لا!، حتى ساعة في هذا المكان قد تدفعه إلى الجنون فما بالك بالأبد.

لكن ربما.. ربما كان هناك مخرج، ربما يمكنه الهروب.

ببطءٍ فتح عينيه. حرَّك رأسه بحذر شديد، دون أن ينهض، ونظر إلى أعلى الدرجات خلفه. لو كان عليه البحث عن مَخرج، فربما الاختيار الأفضل هو أن يبدأ من هناك، من الخلف، من المكان الذي -من المفترض- أن يحوي غرفة المصعد الذي جلبه إلى هنا، حتى لو لم تكن

مرئيـة في هـذه اللحظـة. لكـن السـلالم هنـاك في الخلـف كانـت ضيقـة جـدًّا، ومنحـدرة جـدًّا، وعاليـة جـدًّا، ولم يكـن هنـاك دعـم حولهـا، بالإضافـة إلى أنهـا امتـدت لتختفـي داخـل البيـاض الشـاهق.

لا، لـن يقـدر عـلى الصعـود أعـلى هـذه السـلالم. لـن يتمكـن مـن النـزول أيضًـا. مـاذا لـو أصيـب بالـدوار مـرة أخـرى وانزلـق، أو أخـذ الخطـوة الخطـأ؟، مـاذا لـو اختفـت الدرجـات فجـأة دون إنـذار؟. لا، كان مـن الآمـن البقـاء هنـا والانتظـار. ربمـا سـيحدث شيء مـا. ربمـا أخطـأوا فيـأتي أحدهـم ويخرجـه.

أغمـض عينيـه مـرة أخـرى، وضغـط عـلى نفسـه عـلى الـدرج مستسـلمًا، ومنتظرًا.

(2)

دار الأيتام القديمة، أول دار للأيتام، تلك التي أحبَّها. كان يقطع الممر الذي عهده وحفظت عيناه كل خدش ولون فيه. غرفته. غرفته وغرفة جاسبر. المقعد المريح جوار النافذة، والسريران. جاسبر يرفع عينيه لينظر له من مكانه أمام مكتبه مبتسمًا، سعيدًا لرؤيته. قال جاسبر شيئًا. شيئًا مهمًّا للغاية. الرسالة الأهم على الإطلاق، سِرٌّ، تحذير، معلومة، علامة. الكلمات التي خرجت من بين شفتيه. الكلمات مهمة لكن.. لكن الحافلات والضوضاء كانت صاخبة للغاية خارج النافذة، العالم بالخارج يصرخ ولم يستطع سماعه.

- «بصوت أعلى، جاسبر، بصوت أعلى أرجوك!»

لكن جاسبر يبتسم باستمرار ويتحدث ولا يلاحظ. حوله تختلط الملايين من الأصوات، والمربية والطبيب هناك، الأمن والأخصائيين الاجتماعيين، والآباء بالتبني، الكل يتحدث في وقتٍ واحدٍ وجاسبر هناك في الزاوية. لم يعد بوسعه سماعه، رؤيته أصبحت مشوشة. ما هي الرسالة يا جاسبر؟ ماذا كانت الرسالة؟

عبرت القشعريرة بطول جسده. تمايَل، ورفع جبهته المتعرقة من بين ذراعيه. استغرق الأمر منه لحظات ليدرك مكانه، ليستعيد وعيه. وليدرك أن تلك اللحظات المسروقة من مكانٍ آخر وزمن آخر لم تكن سوى حلم. ورغم أن الحلم كان جميلًا في بدايته، ومريعًا قُرب النهاية،

لكنه كان يتوق إلى العودة والغوص هناك مرة أخرى. لو أنه لم يستيقظ أبدًا!

كان ذلك عندما لاحظ شكلًا يتحرك بالأسفل. شخصية صغيرة جدًّا ذات شعر داكن، تتسلق مجموعة من الدرجات متلفتة حولها. بدأ قلبه ينبض بشدة. حاول الصياح، ولكن مع أول صوت أطلقه، تعثرت الكلمات واحتبست في حلقه، سعل واحمرَّ خجلاً. ثم وببطءٍ شديدٍ وحذَرٍ، استند إلى السلالم ناهضًا، محاذرًا ألا يتعثر فيسقط، وقف وتحرك خطوتين.

لاحظ تردد صوت الخطوات وسط الهدوء والوسع، بينما كان الشخص الموجود في الأسفل يصعد الدرج. أدرك كذلك أنه -أيًّا كان من ذلك هناك- كان شخصًا على دراية بهذا المكان، لأنه لم يكن هناك أي تردد في مشيته، ولا خوف، كان ينظر بهدوء من جانب إلى آخر. تسارعت ضربات قلب بيتر، عجز عن إبعاد عينيه عن الغريب مفكرًا في احتمالية أنه شخص قادم لنجدته، ليخرجه من هذا المكان.

بدأت أفكاره تتسارع، عليَّ أن أناديه، ماذا لو كان قد أتى هنا باحثًا عني بالفعل لكنه عجز عن إيجادي وسط هذه المتاهة، سيرحل وسأظل أنا هنا عاجزًا وحبيسًا. تلك الفكرة كانت كافية ليعبر صوته حاجز حلقه وصرخ:

- «مهلًا!»

خرجت الكلمات مترددة هذه المرة أيضًا فصاح بقوة أكبر:

- «مرحبًا!»

لا يزال ليس صراخًا، ولكنه كان كافيًا لجعل الشكل أدناه يتوقف وينظر حوله.

- «هنا في الأعلى!» تلعثم بيتر.

- «فوقك!»

أصبح الرأس الأسود تحته أبيض فجأة عندما رفعه الغريب لينظر إليه. كان شعره قصيراً جدًّا، لكن الوجه المدبب كان رقيقًا ونحيفًا، ولم يستطع بيتر تحديد ما إذا كان ينظر لصبيٍّ أم فتاة. على الجانب الآخر، الصوت، الصوت الذي خرج بالرد رغم قوته وقساوته كان صوتًا أنثويًا.

-»مهلًا!»

صاحت بتعجب، بدا عليها أنها على وَشْك سؤاله عن هويته لكنها خفضت وجهها للحظة ثم عادت تنظر له من جديد صارخة:

- «ما هذا؟»

حمل الفراغ والمسافة بينهما الصوت بوضوحٍ تامٍّ، ومعه كل علامة تعجب وغضب مستترة داخل السؤال.

- «ما.. ماذا؟»

غمغم بيتر لنفسه أكثر منه لها. سؤالها جعل قلبه يعود ليهوي إلى الأسفل. لأنه كان يعني أنها لا تعرف هي الأخرى ما الذي يحدث، وأن لحظة الأمل في النجدة التي تشبث بها، تبخرت.

- «لكن كيف، كيف لا تعرفين..؟»

كلماته لم تكن بالعلو الكافي لتصل إليها بالطبع هذه المرة أيضًا. لذا صاحت من جديد مشيرة إلى أذنيها بمزيج من الغضب والفضول:

- «تكلم بصوت أعلى، لا أستطيع سماعك!»

- «لديك أي فكرة ما هذا؟، هل تعرفين أين نحن!»

صرخ قابضًا يديه بقوة حتى شعر بأظافره تنغرس في لحمه، مقاومًا انسداد حلقه فجأة، واختناق صوته بالدموع.

- «ألا تعرفين أين؟»

- «لا أنا لا أعرف!»

صاحت مرة أخرى ويداها على فخذيها، ربما لم يستطع رؤية كل تفاصيل وجهها عن قرب لكن كلماتها حملت نبرة تحدٍّ وهي تنظر إلى الأمام متابعة:

- «لكنني سرعان ما سأعرف».

وبدأت مواصلة صعود الدرج.

بينما كانت في طريقها إليه، حاول إجبار قلبه على الهدوء مفكرًا أنها حتى لو لم تكن النجدة وليس لديها فكرة عن ماهية هذا المكان، فعلى الأقل الوجود بصحبة هنا سيجعل طريقه للجنون أبطأ، ومن يعلم ربما الوجود مع شخص آخر سيساعد كليهما على إيجاد طريق الخروج من هنا بشكل أسرع، لن يعود بمفرده على الأقل، هذا هو المهم.

متابعًا صدى خطواتها التي تقترب لم يكن بوسع بيتر إلا أن يفكر أنها كانت مخيفة قليلًا، غريبة قليلًا، الصوت داخله تمنَّى لو كان قد قابل شخصًا ألطف أو أكثر هدوءًا، لكنه بالطبع ابتلع أفكاره وصمت، وحين وصلت أخيرًا إلى السطح المستوي الذي كان عليه، أدرك أنه غير قادر على مواجهتها بصورة مباشرة ونحَّى نظره جانبًا.

كانت أقصر منه قليلاً، وفي تلك المساحة الصغيرة كان عليها أن تقف قريبة جدًا كي لا تسقط. التفت للنظر إليها. لكن العيون السوداء في وجهها ذي البشرة الزيتونية – رغم الفضول فيها -كانت مباشرة وقوية للغاية، لدرجة أنه سرعان ما نظر بعيدًا مرة أخرى.

- «إذًا أنت لا تعرف أين نحن بحق الجحيم أيضًا؟»

قالت بذات النبرة الحادة الخالية من العدوانية. هز بيتر رأسه، مذعورًا بعض الشيء من استخدامها للألفاظ النابية.

- «لا.. شخص ما.. أخذوني إلى هنا، عصبوا عيني وتركوني هنا. أنا لا أعرف أي شيء».

- «أنا أيضًا. قاموا بتطبيق حيلة عصب العينين اللعينة عليّ أيضًا. كنت أعرف لفترة أنهم يخططون لشيء ما لعين، وأنهم سينتقمون لا محالة، أتعرف؟.. لكنني لم أعتقد مطلقًا أنهم سيفعلون أي شيء كهذا.»

توقفت عن الكلام مشيرة للمكان حولهم قبل أن تتابع:

- «مَن أتى بك إلى هنا على أي حالٍ؟ أعني، على الأقل مؤكد أنك ألقيت نظرة على وجوههم قبل العصابة على العينين وخلافه، حين جاءوا لاصطحابك من المنزل وجرَّك بعيدًا عن الجميع».

أنهت كلماتها وانتظرت ردَّه. تردَّد بيتر قليلًا قبل أن يجيب:

- «لكنهم لم يفعلوا. أعني لم أعرفهم، أعني.. ليس لدي منزل. ليس لدي أي آباء. أنا أعيش في دار للأيتام».

- «أنا أيضًا!!»

قالتها بسرعة وعجب، فنظر مباشرة لها مستنكرًا:

- «فعلًا؟!»

أومأت برأسها فأبقى عينيه عليها للحظة ثم تابع وهو يشيح ببصره بعيدًا لينظر إلى قدميه:

- «استدعوني اليوم إلى المكتب، كانوا يتحدثون بالفعل عندما أتوا بي إلى هناك، عصبوا عيني، وطلبوا مني الذهاب مع الشخص الذي كان هناك. وقيَّدوا يدي».

قاطعته الفتاة فجأة:

- «ألا يمكنك التحدث بصوت أعلى؟ أنا بجانبك مباشرةً، وبالكاد أستطيع سماع أي شيء تقوله».

بلع بيتر لعابه ورفع صوته بجهدٍ متابعًا:

- «اصطحبوني في سيارة قبل أن يتسنى لي السؤال حتى، وجلبوني إلى هنا، أزيلت العصابة عن عيني، وهذا كل شيء».

حرك يديه بوهن مشيرًا لما حوله، عانيًا أن لا شيء آخر يقال سوى أنه وجدَ نفسه وسط الفراغ، ولدهشته هزت الفتاة رأسها متعجبة وهي تواصل الحديث من حيث توقف هو:

- «لتجد نفسك هنا. نعم، في الواقع حدث نفس الشيء معي. المختلف هو أنني اعتقدت أنني أعرف ما يجري، أو ما سيفعلونه. كانوا يهددون بإلحاقي بالمدرسة الإصلاحية لعدة أشهر بعد تلك الحيلة الصغيرة الأخيرة التي قمت بها...»

توقفت مؤقتًا ضاحكة ثم رفعت كتفيها متنفسة بعمق:

- «بعد ذلك، اعتقدت، مؤكدا!، لقد فعلوها أخيرًا. وأنا في طريقي للمدرسة الإصلاحية، لكن الآن... هيي انظر إليَّ، أنا لا أعض».

وجهت كلماتها له، فرفع بيتر نظره ليقابل وجهها مترددًا. لتصمت هي للحظة متفحصه إياه قبل أن تعقب:

- «لا تبدو بالضبط من النوع الذي يقدم على أي فعل.. أعني، فعل مشين أو، لا أعرف، أعني لا تبدو من النوع الذي يرتكب ما قد يؤهله لعقابٍ أو ما شابه!».

صمت بيتر للحظة ثم حرك رأسه نفيًا:

-»لا، لم أرتكب أبدًا أي فعل يستدعي عقابًا، لم أقم بمخالفة أبدًا أو بأي فعل يثير استياء أحد مني. لهذا السبب لا أستطيع أن أفهم لماذا... لماذا فعلوا هذا بي؟»